المنار
١٣١٥

في يوم السبت ٧ ربيع الاول سنة ١٣١٧ الموافق ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٩

* كان ياما كان *

٢

بينما كانت السيارة الأولى تسام سوء العذاب * وتقاسي مرارة الاغتراب * وحرارة الحيبة والاكتئاب * اذ هبطت السيارة الثانية * في تلك العاصمة النائية * وطفقت تنادي بصوت رفيع * (عفة واستقامة للبيع) * هل من طالب فيعطى طلبته * هل من راغب فينال رغيبته * فما سمعها انسان * الا تخيل انها مختلة الشعور فرت من البيمارستان * ولكن استلفت اليها الانظار جمالها الباهر * وما يلوح عليها من مخايل الوقار والكمال الظاهر * فأحاط بها الناس احاطة الهالة بالقمر * والاكمام بالثمر * معتقدين صدق لهجتها * ونفاسة سلعتها * فقالت الاغنياء لو كانت دورنا كبيرة كدور آبائنا الاولين * لاشترينا منها هذا المتاع الثمين * واختزناه في مخازنها الكبيرة * واحتكرناه الى وقت الضروره * ولكن مخازن بيوتنا اليوم صغيرة * لاتكاد تسع أثاثنا وبضاعتنا الكثيره * فكيف نضم اليها من الازواج * (أي الاصناف) مالا يرجى له رواج * لاسيما ونحن مضطرون الى اهماله *

أوالوقوع في سوءاستعماله * وقالت الفقراء بماذا نشتري هذا المتاع الفاخر * الذي هو زينة أرباب الغنى والمظاهر * وحلية الكبراء * ومفخر الامراء * بل ومعراج العباد الناسكين * يرقون فيه الى مقامات الاولياء المقربين * واذا تكلفنا تحصيل ثمن العفة والاستقامة * وانه لأمرّ مما يجرعنا الفقر من الضجر والسآمة * فهل يصدق هؤلاء الناس باننا ملكنا هاتين السلعتين النفيستين ويعترفون لنا باننا صرنا أغنياء مستقيمين ؟ كلا بل يقولون اننا نسمي عجزنا عن تناول الشهوات عفة واننا ماستقمنا على الطريقة الا مكرهين * وبلجام الفقر مكبوحين * وقالت النساء ـ اذا اشترينا العفة والاستقامه * فاننا نرجع بالخيبة والندامة * لان هؤلاء الرجال الاشرار * لاتحظى عندهم الا منهتكات الاستار * فما لم تتبرج احدانا تبرج الجاهلية * وتتجلى لهم بابهى مجالي الزينة الصناعية * لاتجد فيهم خاطبا * ولا تلقى منهم راغبا * فاذا اشترى الرجال فانا مشتريات * واذا عفّوا واستقاموا فانا نكون عفيفات نزيهات * فالرجال قوامون على النساء لاالنساء قوامات على الرجال * ولا نستطيع ان نكون على نقيض ماهم عليه في حال من الاحوال * ثم تقدمت امرأة من الايامى الى السيارة مستامة فقالت (المرأة) هل هذه العفة غالية الثمن ؟ (السيارة) لا (المرأة) ماثمنها ؟ (السيارة) اربعة وعشرون درهما من الصبر ومخالفة النفس الامّارة بالسوء (المرأة) هل يؤخذ هذا الثمن دفعة واحدة وتؤخذ به العفة (السيارة) لا وانما يدفع اقساطاً في مدة طويلة ولا تتم هذه الاقساط الا ويرى المشتري العفة ملك يمينه (المرأة) اذن العفة غالية جداً ثم غادرتها المرأة وانصرفت وانفض في أثرها الجمع * فلم تجد السيارة بعد انصراف الناس عنها بداً من التطواف والجولان * وعرض بضاعتها على كل انسان *

فمرت في طوافها ببناء شاهق * قد ازدحمت عليه أصناف الخلائق * ولما سمعت أقوالهم * وتعرفت بالفراسة حوالهم * رأتهم يتبادلون النظر الشزر * ويتعاملون بالدهاء والمكر * كأنهم خصماء * قد ألقيت بينهم العداوة والبغضاء * فعرضت عليهم بضاعتها الثمينة * وأخبرتهم بانها تذهب بالحقد والضغينه * فأعرضوا عن التذكره * كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة * وعلمت هي من القرائن الحاليه * ان البناء الشامخ هو نظارة العدلية (الحقانية) . فطافت في ارجاء المكان * ثم دخلت احدى غرفه بغير استئذان * واذا هي محكمة النقض والابرام * ومكان التشريع العام * واذا بالقضاة فيها يأتمرون * (والله يعلم مايسرون وما يعلنون) * فصاحت السيارة يامعشر الحكام * القابضين على أزمة مصالح الانام * هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * وتنالون بتناولها الفخر العظيم * تتمتعون منها بالنعماء * وتفيضون من بركاتها على الدهماء * لان من ربحها العدل في القضاء * والانصاف بين الخصماء * وناهيكم به عمرانا للبلاد * واسعاداً للعباد * وذلك ان تبتاعوا مني بعض بضاعتي السماوية * التي أرسلني لبيعها رئيس المعبودات العلية * وهي العفة التي تقف بالنفس البهيمية موقف الاعتدال * والاستقامة التي ترتقي بالنفس الناطقة الى أوج الكمال * ولاريب انكم أيها الاكياس * أولى بهاتين من سائر الناس *

كانت السيارة تتكلم بقوة روحية * وعيناها النجلاوان تنبعث منهما اشعة نورية * كادت تخطف الابصار * وتحقق الاعتبار * فاعترت القضاة الدهشة * وهزتهم الرعشة * وعلتهم الهيبة * وصمتوا على التوبة * ولولا ذلك لاوقفوها عن المقال * في أول المجال * وبعد ان أتمت الخطاب * وسكن من القضاة الاضطراب *

ثابت اليهم حالتهم الاصلية * وعادت اليهم خواطرهم العادية * فرأوا انها تدعوهم الى محو ملكات * وتبديل صفات بصفات * وتسدل بينهم وبين الاستعلاء على الناس حجابا * وتغلق دونهم من الثروة ابوابا * فقالوا ان هذه الفتاة قد هتكت حرمة النظام * واحتقرت بكلامها الحكام والاحكام * فيجب ان تزج في اعمق السجون * حتى يأتيها المنون * وحكم الرئيس بهذا الجزاء * باتفاق الآراء * وعهد الى الشرطة بتنفيذه في الحال * او تفتدي بمبلغ عظيم من المال * لا من بضاعتها المزجاه * وسلعتها المزجاه * فأخرجها رئيس الشرطة (قومسير البوليس) من الديوان * وانفرد بها في مكان * يريد استنطاقها * وتعرّف اخلاقها * وكان ذا فراسه * وصاحب كياسه * وكفي بالتجاريب * عبرة وتهذيب . ولما رأى من كمالها مارأى ووقف على حسن مقاصدها وارادتها الخير لبني الانسان ببيعهم العفة والاستقامة اللتين هما من اهم اسباب سعادتهم قال لها (اي بنية اختاري لك محلا آخر لبيع هذه البضاعة النفيسة واياك ان تمري بهذا المكان ثانية فان اهله اعداء العفة والاستقامة ونسأل الله السلامة) فعقلت ما قال من الكلام . وتقبلت نصيحته الابوية وانصرفت بسلام .

ثم مرت بمكان آخر يشبه الاول في فخامة بنائه . وكثرة اجتماع الناس في فنائه . فخطر لها أولا انها ربما تلقى في هذا ماالقيته في الاول لشبهه به وقربه منه ولكن حملتها قوة الامل . وشدة الثبات على العمل — وهما سبب كل نجاح . وعنوان كل فلاح — ان تمازج اهله فمازجتهم . وان تساومهم فساومتهم . وابتدأت بقوم جلوس على الارض . يشتغل بعضهم بمحاورة بعض . فقالت لهم هل من مريد للعفة . هل من راغب في

الاستقامة . فاني كلفت باستبضاعهما . لاجل بيعهما . فطفق بعضهم يضحك منها مغرباً . وبعضهم يسخر منها مستغرباً . وقال لها احدهم ايتها الفتاة السليمة النيه . الصادقة الطوية . ان العفة والاستقامه . قد اوقعتانا في الحسرة والندامه . وان تيارهما هو الذي قذف بنا في هذا المكان . حيث نقاسي الذل والهوان . فقال له آخر . دع عنك هذه الفتاة الحمقاء لقد كان عندي هذا المتاع . وكنت احافظ عليه جهد المستطاع . ولولا انني ألقيته في قاع البحر . لاهلكني الذل والفقر . وقد قاض عليّ بتركه معين الثروة والغنى * ونلت بعده غاي المنى * أترقى في الوظائف العاليه * وأتقلب في الرتب السامية * وأتحلى بالوسامات الزاهيه * واذا عزلت أجيء هذا المكان * مملوء الجيب بالاصفر الرنان * فلا يمر عليّ شهران * الا وأنال أقصى مافي الامكان * ولولا توبيخ الضمير على ترك ذلك الاكسير لكنت أنعم بالامن كل امير * واطيب عيشاً من كل وزير * ولكنها خواطر تمر مرّ السحاب * لاتداني ذلك البؤس والاكتئاب * وما انا بمجنون * فأعود الى ذلك الهون * باتباع الاستقامة والعفاف . من هذه الفتاة الكاملة الاوصاف . ثم التفت الى السيارة وقال لها انصحك ايتها الفتاة المسكينة ان تذهبي بسلام . قبل ان يحل بك الانتقام . فأنت الآن مع المعزولين . واياك واياي الموظفين واذا بالمكان (نظارة الداخلية) والذين كاموها هم من الموظفين المعزولين (كالمديرين والمأمورين) جاؤا ينتظرون وظائف تخلو من عمالها ليطلبوها لانفسهم فتذكرت السيارة مالقيت من النظارة الاولى وما كانت ناسيه . وقالت في نفسها ما اشبه الليلة بالماضيه . وانسلت من النظارة حزينه . ثم طافت قليلا في المدينة . تعرض البضاعة بالثمن الزهيد . راجية ان تحظى

برجل رشيد . فوجدت الناس في سلوكهم . على دين ملوكهم . فخرجت من المدينة خائفة ترقب ان يلحقها العذاب المهين . وتوجهت الى الملأ الأعلى وهي تقول (رب نجني من القوم الظالمين) . وللكلام بقية .

﴿ استنهاض همم ﴾

١١

بقية الولايات العربية يكاد يكون الكلام عليها متقارباً متشابهاً من حيث اطماع انكلترا فيها لوقوعها في قارعة الطريقين المؤدبين الى الهند البحري والبري فهي ربما كانت تضمر في نفسها التقام جزيرة العرب برمتها وتتمني لو تكرع فوقها الرافدين دجلة والفرات

(سوريا) ونعني بها البلاد الواقعة بين آسيا الصغرى شمالا ومصر غرباً . ان للدول الغربية بواعث جمة للتطلع الى سوريا والاندساس بينها وبين صاحبها وأقوى تلك البواعث وأعظمها خطرا امران (الاول) كونها معدن الديانة النصرانية ومنبثق الاشعة العيسوية وكفافاً (*) يضم المعاهد المقدسة التي تنتابها الامم المسيحية من كل جنس وعلى أي نحلة يتقاطرون اليها على قصد الزيارة والتبرك و (الثاني) تكاثر النصارى في ربوعها والتفافهم بمسلمي أهلها بما أربى على سائر الولايات العربية . احد هذين الباعثين كاف في انبعاث دول أوربا للاهتمام بسوريا والمساجلة في نيل النفوذ فيها فما بالك وقد اجتمعا معا والمعهود من شنشنة القوم التحمس في خدمة الدين ورفع شأن كهنته والتظاهر بحماية النصارى المنبثين في الاقطار الشرقية والتشوف لسبر اغوار

(*) كنف الشيء بالكسر مايضمه ويحيط به فكنف النخل اطاره وكنف المرآة والصورة هو مايسمونه اليوم (برواز)